﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

إنْ كانت الدنيا يُملِّك الله فيها بعض خَلْقه بعض خَلْقه، كما قال سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران] وقلنا: فَرْق بين المِلْك والمُلْك: المِلْك كل ما تملك ولو كان حتى ثوبك الذى ترتديه فهو مِلك، أمّا المُلْك فهو أن تملك مَنْ يملك، وهذا يعطيه الله تعالى، ويهبه لمن يشاء من باطن مُلْكه تعالى، كما أعطاه للذى حاجّ خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ[1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فلا مِلْك ولا مُلْك لأحد، فقد سلب هذا كله، والمُلْك اليوم لله وحده: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

إذن: فما فى يدك من مُلْك الدنيا مُلْك غير مستقر، سرعان ما يُسلَب منك؛ لذلك يقول أحد العارفين للخليفة: لو دام المُلْك لغيرك ما وصل إليك. فالمسألة ليست ذاتيةً فيك، فمُلْكك من باطن مُلْك الله تعالى صاحب المُلْك، وهو الملك الحق، فمُلْكه تعالى ثابت مستقر، لا ينتقل ولا يزول.

وإن انتقلتْ الملكية فى الدنيا من شخص لآخر فإنها تُجمَع يوم القيامة فى يده تعالى، وتجمّع المُلْك والسلطة فى يد واحدة إنْ كانت ممقوتة عندنا فى الدنيا، حيث نَدُره الاحتكار والدكتاتورية التى تجعل

---

(١) حاجّه: نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين، أى: قدّم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر. [القاموس القويم ١/١٤٣].

السلطة والقهر في يد واحدة ، إنْ كانت هذه مذمومة في البشر فهي محمودة عند الله تعالى ؛ لأنها تتركز في الدنيا في يد واحد صاحب هوى .

أما في الآخرة فهي في يده تعالى ، فالرحمة في الدنيا أن يوزع الملْك والسلطان ، والرحمة في الآخرة أن تُجمع في يده تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان] إذن : اجتماع الملْك يوم القيامة لله تعالى من مظاهر الرحمة بنا ، فلا تأخذها على أنها احتكار أو جبروت ؛ لأنها في يد الرحمن الرحيم .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُطمئنك : لا تقلق ، فالملْك يوم القيامة ليس لأحد تخاف أن تقع تحت سطوته ، إنما الملك يومئذ الحق للرحمن .

والحق : الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وما دام ثابتاً لا يتغير فهو لا يتناقض ولا يتعارض ، فالرجل إذا كلّمك بكلام له واقع في الحياة وطلبتَ منه أن يعيده لك أعاده ألف مرة ، دون أن يُغيِّر منه شيئاً ، لماذا ؟ لأنه يقول من خلال ما يستوحي من الحقيقة التي شاهدها ، أمّا إنْ كان كاذباً فإنه لا يستوحي شيئاً ؛ لذلك لا بُدَّ أن يختلف قوله في كل مرة عن الأخرى ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً .

ومن رحمانيته تعالى أن يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان] فينبهنا إلى الخطر قبل الوقوع فيه ، وهذه رحمة بنا أن ينصحنا ربنا ويعدل لنا ، وإلا لو فاجأنا بالعقوبة لكان الأمر صعباً .

فإن ذكرت المقابل تقول إنه يسير على المؤمنين ، فاحرص أيها الإنسان أن تكون من الميسّر لهم لا من المعسّر عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

هذه عدَّة أيام ذكرتها هذه الآيات : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ الملك يومئذ الحق .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ يوم يعض الظالم على يديه .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفرقان] فيوم القيامة جامع لهذا كله .

وقلنا : إن الظالم : الذى يأخذ حقَّ غيره ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُوضِّح هذا الظلم بقوله تعالى : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

لأنهم لا يقدرون على ظُلْم الله تعالى ، ولا على ظُلْم النبى ﷺ ، فكلمة الله ورسوله هى العُلْيا ، وسينتصر دين الله فى نهاية المطاف . ومع ذلك يعاقبهم الله تعالى على ظلمهم لأنفسهم ، فنِعْم الإله إله يفعل هذا مع مَنْ عصاه .

والكافر حتى فى مظهرية ظُلْمه للغير يظلم نفسه ؛ لأنه يضعها فى موضع المسئولية عن هذه المظالم . إذن : لو حقَّق الإنسان الظلم لوجده لا يعود إلا على الظالم نفسه .

وحين يرى الظالمُ عاقبةَ ظُلْمه ، ويعاين جزاء فعْله يعضُّ على يديْه ندماً وحَسْرة . والعَضُّ : انطباق الفكيْن الأعلى والأسفل على شىء ، وللعضِّ مراحل تتناسب مع المُفْزِع الذى يُلجىء الإنسانَ له ، وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .. ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران]

والأنامل : أطراف الأصابع وعَضُّها من الغيظ عادة معروفة حينما يتعرّض الإنسان لموقف يصعُب عليـه التصرف فيه فيعضُّ على أنامله عَضاً يناسب الموقف والحدث ، فإنْ كان الحدث أعظمَ ناسبه أنْ يعضّ يده لا مجرد أصـابعه ، فإنْ عظم عَضَّ على يديْه معاً كما يحدث لهم في الآية التي معنا : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الفرقان] لأنه في موقف حسـرة وندم على الفـرصة التي فـاتته ولن تعـود ، والخطأ الذي لا يـمكن تداركـه ؛ لذلك يُعـذِّب نفسـه قـبل أن يأتيـه العذاب .

فيعضُّ على يديْه معاً ، فكأن الأمر المُفْزِع الذي يعاينه بلغ الغاية ؛ لذلك عضَّ على يـديه ليـبلغ الغـاية في المـعـضـوض ، وهو العـاضّ والمعضوض ، ولا يُعذِّب نفسه بهذه الطريقة إلا مَنْ يئس من النجاة .

ثم يُبيِّن علة ذلك : ﴿ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) ﴾ [الفرقان] وإنْ كـانت هذه الآية قـد نزلت في حـدث مخـصـوص وفي شخص بعينه ، فإنها تعمّ كل مَنْ فعل هذا ، فـالعبرة ـ كما يقولون ـ بعـموم اللفظ لا بخـصـوص السبب ، فـهـذا جزاء كل ظالم حَـادَ عن الجادة .

وهذه الآية نزلت في حدث خاص باثنين[١] : عقبة بن أبي معيط ، وكان رجـلاً كريمـاً يُطعم الطعام ، وقـد دعا مـرة رسـول الله ﷺ إلى طعامه ، لكن رسول الله اعتذر له وقال : لا أستطيع أن أحضر طعامك إلا أنْ تشـهـد أن : لا إله إلا الله ، وأن محمـداً رسول الله ، فلما شـهد

---

(١) أورده الواحدي النيسابوري في أسبـاب النزول (ص ١٩١) قال ابن كثـير في تفسـيره (٣١٧/٣) : « سواء كان سبب نزولهـا في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشـقياء فإنها عامة في كل ظالم » .

الرجل الشهادتين زاره رسول الله وأكل من طعامه ، فأغضب ذلك أمية ابن خلف صاحب عقبة فقال له : لقد صبوتَ يا عقبة ، فقال عقبة : والله ما قلتُ ذلك إلا لأننى أحببتُ أن يأكلَ محمد عندى كما يأكل الناس ، فقال أمية : فلا يبرئك منى إلا أنْ تذهب إلى محمد فى دار الندوة فتطأ عنقه وتبصق .. إلخ ، وفعل عقبة ما أشار عليه به صاحبه(١) فنزلت الآية : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان] والمراد بالسبيل قوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ثم يقول :

﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

الويل : الهلاك ، فهو يدعو الهلاك ويناديه أنْ يحلّ به ، والإنسان لا يطلب الهلاك لنفسه إلا إذا تعرَّض لعذاب أشدّ من الهلاك ، كما قال أحدهم :

* أشَدُّ من السَّقم الذى يُذهب السَّقما *

وقول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً ... وحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أمَانِيَا(٢)

فلما كانت المسألةُ أكبر منه وفوق احتماله نادى يا ويلتى احضرى ، فهذا أوانك لتُخلِّصينى مما أنا فيه من العذاب .

---

(١) قال الضحاك : لما بزق عقبة فى وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه فى وجهه فتشعب شعبتين ، فأحرق خديه ، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت . نقله الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٢) .

(٢) البيت بيت مشهور للمتنبى (ديوانه ٤/٢٨١) وأورده شهاب الدين محمود الحلبى فى كتاب « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (٢٥٢) فى فصل « حسن الابتداءات » .

وقوله ﴿لَيْتَنِي .. ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان] تَمَنٍّ ، والتمنّي طلب أمر محبوب لا سبيلَ إلى حصوله ، كما قال الشاعر في التمني :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا   عُقودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلِمِي

وهذا أمر لا يمكن أنْ يُنال .

وآخر يقول :

فيا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً   فَأُخبِرَه بِمَا فعَلَ المشيبُ

فقصارى ما يعطيه أسلوب التمنى أنه يدلّ على أمر محبوب ، كنت أحب أن يحدث ، لكن أيحدث بالفعل ؟ لا .

وكلمة (فلان) تقولها كناية عن شخص لا تحب حتى ذِكْر اسمه ، فعقبة (ابن أبى مُعيط) لم يقل : ليتنى لم أتخذ أمية (بن خلف) خليلاً إنما قال (فلاناً) لأنه كاره له يبغض حتى ذكر اسمه .

والخليل : من الخُلَّة والمخَالَّة يعنى : الصداقة المتداخلة المتبادلة وفى ذلك يقول الشاعر :

ولَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْده   خَليلَيْن ذَابَا لَوْعَةً وعتَابَا

كأنَّ خَليلاً فى خِلاَلِ خَليلِهِ   تَسرَّب أَثْنَاءَ العِنَاقِ وغَابَا

ثم يذكر علة ذلك :

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾

﴿خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان] صيغة مبالغة من الخذلان ، نقول : خاذل وخذول ، ومعنى خذلك أى : تخلّى عنك فى الأمر بعد أنْ مدَّ لك حبالَ الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك

الشيطان يفعل بأوليائه ، كما جاء فى آيات أخرى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر] وفى آية أخرى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨) ﴾ [الأنفال]

وفى موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

فحين يقولون له : لقد أغويتنا وأضللتنا يقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] لا سلطانَ حجة أقنعكم به ولا سلطان قهر أحملكم به وأقهركم على طاعتى ، بل كنتم على (تشويرة) : ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله محمد ﷺ :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾

القوم : قوْم الرجل : أهله وعشيرته والمقيمون معه ويجمعهم : إما أرض ، وإما دين . وسُمُّوا قَوْماً لأنهم هم الذين يقومون على أمر الأشياء ، فهم الرجال خاصة ؛ لأن النساء المفروض فيهن السكن والقرار فى البيوت .

والحق - تبارك وتعالى - يوضح لنا هذا الفرق فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/ ٣٧٣] .

نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١)﴾ [الحجرات] إذن : فالقوم هم الرجال خاصة .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر[1] :

وَمَا أدرى ولَسْتُ إخَالُ أدْرى أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ[2]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان] أضاف القوم إليه - ﷺ - لأنه منهم يعرفونه ويعرفون أصْله ، وقد شهدوا له بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق قبل أن يُبعثَ ، وكان عندهم مؤتمناً على نفائس أموالهم ؛ لذلك خاطبهم الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

إذن : فالرسول ليس بعيداً عنكم ، ولا مجهولاً لكم ، فمَنْ لم يؤمن به كرسول ينبغي أنْ يؤمن به كأسْوة وقدوة سلوك لسابق تاريخه فيكم .

لذلك نرى أن سيدنا أبا بكر ما انتظر من رسول الله دعوةً ، ولا أنْ يقرأ له قرآناً ، أو يُظهر له معجزة ، إنما آمن وصدَّق بمجرد أن قال رسول الله ، فما دام قد قال فقد صدق ، ليس بمعجزة رآها أبو بكر ، إنما برصيده القديم في معرفة رسول الله في سلوكه وخُلُقه ، فما كان رسول الله ﷺ ليَدع الكذب على الخَلْق ، ويكذب على الخالق .

(١) الشاعر هو : زهير بن أبي سلمى ، حكيم الشعراء في الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد في بلاد « مزينة » بنواحي المدينة ، من أشهر شعره معلقته ، توفي عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلي ٣/٥٢] .

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ٧٣ ، وحسن التوسل صفحة ٢٢١ .

وكذلك السيدة خديجة : هل انتظرت من رسول الله ما يُثْبت نبوته ؟ إنها بمجرد أن قال رسول الله صدَّقتْ به ، ووقفت بجانبه وثبَّتته وهدَّأتْ من روعه ، وقالت له : « والله لا يُسلمك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكَلَّ[1] ، وتعين على نوائب الدهر »[2] .

ومعنى : ﴿مَهْجُوراً ۝٣٠﴾ [الفرقان] من الهجر وهو قَطْع الصلة ، فإنْ كانت من جانب واحد فهى هَجْر ، وإن كانت من الجانبين فهى (هاجراً) . والمعنى : أنهم هجروا القرآن ، وقطعوا الصلة بينهم وبينه ، وهذا يعنى أنهم انقطعوا عن الألوهية وانقطعوا عن الرسالة المحمدية ، فلم يأخذوا أدلة اليقين العقدية ، وانقطعوا عن الرسالة المحمدية حينما كذَّبوا بها ، وانقطعوا عن الأحكام حينما عَصَوْها ، وبذلك اتخذوا هذا القرآن مهجوراً فى كل هذه المسائل : العقائد والعبادات والتصديق بالرسول .

مع أن العرب لو فهموا قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ۝٤٤﴾ [الزخرف] لمجَّدوا القرآن وتمسَّكوا به ، فهو الذى عصمهم وعصم لغتهم ، وأعلَى ذكْرهم بين الأمم ، ولو أن كل أمة من الأمم المعاصرة أخذتْ لهجتها الخاصة الوطنية ، وجعلت منها لغةً لتلاشت العربية كلغة .

وفى كثير من بلدان الوطن العربى لو حدَّثوك بلهجتهم الخاصة لا تفهم منها شيئاً ، ولولا أن الفُصْحى لغة القرآن تربط بين هذه اللهجات لأصبحتْ كلٌّ منها لغةً خاصة ، كما حدث فى اللغات اللاتينية

(١) تحمل الكَلّ : أى تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال انظر شرح النووى على مسلم (٥٦١/٢) ، وفتح البارى للعسقلانى (٢٤/١) .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

التى تولدت منها الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية ، ولكل منها أسسها وقواعدها الخاصة بها ، وكانت فى الأصل لغة واحدة ، إلا أنها لا رابطَ لها من كتاب مقدس .

فالحق - تبارك وتعالى - يُنبِّههم إلى أن القرآن فيه ذِكْرهم وشرفهم وعزتهم ، وفيه شهرتهم وصيتهم ، فالقرآن جعل العرب على كل لسان ، ولولاه لذابوا بين الأمم كما ذابتْ قبلهم أمم وحضارات لم يسمع عنها أحد .

لذلك يقول لهم النبى ﷺ : « إنْ تؤمنوا بما جئت به يكُنْ حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوا علىَّ قولى صبرتُ حتى يحكم الله بينى وبينكم »[١] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

وإذا لم يكُنْ للرسول أعداء ، فلماذا جاء ؟ لو انتظرنا من الجميع ساعةَ يأتى الرسول أنْ يُصدقوه ويؤمنوا به إذن : فلماذا جاء الرسول ؟ لا يأتى الرسول إلا إذا طَمَّ الفساد وعَمَّ ، كما أننا لا نأتى بالطبيب إلا إذا حدث مرض أو وباء .

وهؤلاء القوم كانت لهم سيادة ومكانة ، وقد جاء الإسلام ليُسوِّى بين الناس ، ويسلب هؤلاء سيادتهم ، فلا بُدَّ أن يقفوا منه موقف العداء ، وهذا العداء هو حيثية وجود الرسول فيهم . وليس النبى ﷺ

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٩٦/١) ضمن حديث وفد كفار قريش إلى رسول الله ﷺ .

بدْعاً فى ذلك ، فما من نبى إلا وكان له أعداء ، مع أن الأنبياء السابقين كان النبى منهم فى فترة زمنية محدودة وفى مكان محدود .

أما رسالة محمد ﷺ فكانت رسالة عامة فى الزمان وفى المكان ، ولا بُدَّ أنْ يتناسب العداء - إذن - مع انتشار الرسالة وعمومها فى الزمان والمكان إلى قيام الساعة ، وعلى النبى ﷺ أن يُوطِّن نفسه على ذلك .

وكلمة (عدو) من الكلمات التى تُطلق مفردة ، وتشمل المثنى والجمع ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

وفى سورة الكهف : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] ولم يقل : أعداء .

وفى بعض الآيات تأتى بصيغة الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] فلو كانت قضية لغوية لجاءتْ بصيغة المفرد فى كل الآيات .

لكن لماذا عدلَ القرآن هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع ؟

قالوا : إنْ كانت العداوة من المفرد والمثنى والجمع عداوة واحدة قال (عدو) بصيغة المفرد لاتحاد سبب العداوة ، فإنْ كانت العداوات مختلفة : هذا يعاديك لشرفك ، وهذا يعاديك لعلمك ، وهذا يعاديك لمالك ، فتعددت أسباب العداوة قال (أعداء) أما فى مسألة الإيمان واليقين بالنسبة للكافرين فالعداوة واحدة ، لكن فى أمور الدنيا العداوات متعددة : هذا يعاديك لكذا ، وهذا يعاديك لكذا ؛ لأنه مخالف لهواه .

وحينما تحدثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] كلها بصيغة الجمع إلا فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ لأن صداقة المؤمنين ينبغى ألاَّ تكون إلا لمعنى واحد ، هو الحب لله ، وفى الله ، لا ينبغى أن يكون لك صديق لكذا وصديق لكذا .

وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقذف فى النار »[1] .

فإذا كان أصدقاؤك يحبونك لله ، فهم جميعاً كصديق واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ..(٣١) ﴾ [الفرقان] يعنى : كأعدائك الذين اتخذوا القرآن مهجوراً ، والذين وقفوا منك موقف التعنت والإيذاء والسخرية .

﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ..(٣١) ﴾ [الفرقان] أى : الذين يُجرمون يعنى : يرتكبون الجرائم ، وهى المعاصى والذنوب حَسْب مدلولاتها .

الحق - تبارك وتعالى - حينما يكشف لرسوله ﷺ حقيقة أعدائه ، وأنهم كثيرون ، وأنهم مجرمون إنما ليوَطِّن نفسه على ذلك ، فلا يُفَاجأ به ، ويتحمل أذاهم إنْ أصابوه بسوء . وهذه المسألة كالمصْل والتحصين الذى يعطونه للناس لمواجهة المرض قبل حدوثه ، فالحق سبحانه يعطى رسوله المناعة اللازمة لمواجهة أعداء الدعوة .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣) كلاهما فى كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

لذلك نجد « تشرشل » القائد البريطانى الذى ساس الحرب العالمية الثانية كان يواجه جنوده بالحقائق أفظع مما هى فى الواقع ليُوطِّن شعبه على قوة التحمل ، وعلى التصدِّى للصعوبات الشديدة ، ومهما واجههم من مصاعب قال لهم ما زال هناك المزيد منها ، حتى إذا ما حدث ذلك كانوا على استعداد له .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) ﴾ [الفرقان] أى : أن الله تعالى سيهديك إلى الطريق الذى بمقتضاه تنتصر على هؤلاء جميعاً . وسبق أن ذكرنا عن الفاروق عمر - رضى الله عنه - أنه حينما نزل قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال : أىُّ جمع هذا ؟ يعنى تعجب كيف سنهزم هؤلاء ونحن الآن عاجزون حتى عن حماية أنفسنا ؟ ولا نبيت إلا فى السلاح ، ولا نصبح إلا فى السلاح نخاف أن يتخطفنا الناس ، فلما وقعتْ بدر وهُزم المشركون وحُصدت أرواح صناديدهم قال : صدق الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر][1] .

كيف حدث هذا ؟ حدث من هداية الله لرسوله ﷺ إلى أسباب النصر ، والحق - تبارك وتعالى - ينصر بالشىء وينصر بضده ، وقد اجتمع فى بدر سادات قريش وأقوياؤها وأغنياؤها وصناديد الكفر بها ، حتى قال رسول الله ﷺ : « هذه مكة ، قد ألقت إليكم أفلاذ[2] كبدها »[3] ،

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) الفِلْذة : القطعة من الكبد واللحم والمال والذهب والفضة . والجمع أفلاذ . وفى حديث بدرٍ : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » أراد صميم قريش ولبابها وأشرافها . كما يقال : فلان قلب عشيرته ؛ لأن الكبد من أشرف الأعضاء » [لسان العرب - مادة : فلذ] .

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٣/٣) . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٦١٧/٢) عن عروة بن الزبير .

وقد خرجوا جميعاً على حال الاستعداد للحرب ، أما المؤمنون فقد كانوا قلَّة مستضعفين على غير استعداد للحرب ، ومع ذلك نصرهم الله .

والحق سبحانه يُطمئن رسوله ﷺ والمؤمنين معه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد] أى : ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، والحق سبحانه أخبرنا بقضايا ، يجب أن تُوجَد أحداث فى الحياة والواقع خادمةً لتصديق هذه القضايا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

هذا أيضاً أحد الأمور التى يتعلقون بها كى لا يؤمنوا ، وكيف يطلبون أن ينزل القرآن جملةً واحدة ، وهم لا يطيقون منه آية واحدة ؟ لكنه الجدل والسفسطة والإفلاس فى الحجة ، فاعتراضهم على نزول القرآن مُنَجَّماً[1]

إذن : لا غضاضة عندهم فى القرآن ، وعَيْبه فى نظرهم أنه نزل على محمد بالذات ، وأنه ينزل مُنجَّماً لا جملة واحدة ، وكأن طاقة الإيمان عندهم تناسب نزول القرآن جملة واحدة !!

(١) مُنجماً : أى : مُفرّقاً مقطعاً على حسب الأحداث وأسباب نزول الآيات آية آية . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣١٨) : « روى النسائى بإسناده عن ابن عباس قال : أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة » .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ .. (٣٢) ﴾ [الفرقان] يعنى : أنزلناه كذلك مُنجّماً حَسْب الأحوال ، والحكمة من ذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. (٣٢) ﴾ [الفرقان] لأنك ستتعرض على مدى ثلاث وعشرين سنة لمواقف تزلزل ، فكلما تعرضْتَ لموقف من هذه المواقف نزل القرآن تسليةً لك وتثبيتاً وَصلةً بالسماء لا تنقطع . ولو نزل القرآن مرة واحدة لكان التثبيت مرة واحدة ، ثم تأتى بقية الأحداث بدون تثبيت ، ولا شكَّ أن الصلة بالسماء تُقوِّى المنهج وتُقوِّى الإيمان .

كما أن القرآن لو نزل مرة واحدة ، كيف يتسنى لهم أنْ يسألوا عما سألوا عنه مما حكاه القرآن : يسألونك عن كذا ، يسألونك عن كذا .. إلخ . إذن : نزوله مُنجّماً اقتضاء لحكمة الحق سبحانه ليُعدِّدَ مواقف تثبيتك ، لتعدد مواقف الإيذاء لك .

ومعنى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه مُنجّماً حَسْب الأحوال ، فكلما نزل نجم تمكنتم من حفْظه وتكراره فى الصلاة .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾

المثَل مثل قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. (٣٢) ﴾ [الفرقان] أو قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] والمثل : الأشياء العجيبة التى طلبوها .

ولو أجابهم الله لما قالوا لأنكروا قولهم وتنصّلوا منه ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة] ومع ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم . أمَا كان فيهم رجل يتنبه لقوْل القرآن ، فيحذرهم من هذا القول ليُوقِع

رسـول الله فى حرج ، ويُظهـر القرآن علـى أنه كذب ، ويقـول كلاماً يخالف الحقـيقة ، وعندها ، لهم أنْ يقولوا : لقد قال الـقرآن كذا وكذا ولم يحدث منا هذا ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ .. ٣٤ ﴾ [الفرقان] إجمـال لأشخاص معـروفين بذواتهم ، وقفوا من الرسول موقف العداء ، ومنهم مَنْ سبق أن قال : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ ﴾ [الفرقان]

والحشر : الجمع للحساب ، لكن سيُحشَرون على وجوههم ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية ســألوا رسول الله : كيف يَمشُـون على وجوههم ، قـال ﷺ : « الذى أمـشـاهم على أرجلهم ، قـادر أن يُمـشـيـهم على وجوههم »[1] .

فالـذى يمْشى على وجـهه كـالذى يمشى على بطنه ، ولعله يُـجَر جراً ، ســواء أكان على وجهه أو على أى شىء آخـر ، ثم إن الإنسـان لا ينبغى له أن يسأل عن أمور هى مناط القدرة المطلقة .

والحق ـ تبارك وتعـالى ـ يُوضِّح هذه المسألة فى قـوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي

---

(١) عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا نبى الله يحشر الكافـر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذى أمشاه على الرِّجْلين فى الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦٠ ، ٦٥٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٦) كتاب صفات المنافقين .

عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ [النور]

إذن : المشْى لا ينحصر فى الحالات التى نعرفها فقط ، إنما هى طلاقة القدرة التى تفعل ما تشاء .

لكن ، لماذا لم يذكر القرآن أسماء هؤلاء الأشخاص الظالمين المعاندين للإسلام ؟ قالوا : هذا من باب إرخاء العنَان للخَصْم ، وكلمة (العنان) تأتى بكسر العين وفتحها ، واللغويون يقولون : هى على وزن ما هى بمعناه ، فإن قصدتَ بها عَنان السماء فهى على وزن سَحَاب ، وإن أردتَ بها عنان الفرس ، فهى على وزن لجَام .

وراكب الدابة إنْ أرخى لها العنان تركها تسير كما تشاء ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يُرخى للخصم العنان ليقول كل ما عنده ، وليأخذه إلى جانبه ، لا بما يكره ، بل بما يحب . وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ كيف يردُّ عليهم ويجادلهم الجدل الهادىء بالتى هى أحسن ، فحين قالوا عنه مفتر ، وعن القرآن مُفترىً ومكذوب ردّ عليهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس]

ثم يترقَّى فى جدالهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود] وفى آية أخرى يرد عليهم : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

وهل النبى ﷺ لا يعرف مَنْ على الهدى ومَنْ على الضلال ؟ لا شكَّ أنه إرخاء العنان للخصم ، يقول لهم : أنا وأنتم على طرَفى نقيض : أنا أقول بإله واحد وأنتم تُكذِّبون قولى ، فأنا متناقض معكم فى هذه القضية ، والقضية لا بُدَّ أن تأتى على شكل واحد ، فإمَّا أنا على الهدى ، وإمَّا أنتم ، وأنا لا أدَّعى الحق لنفسى .

إذن : المطلوبَ أنْ تُعملوا عقولكم لتُميِّزوا مَنْ منّا على الهدى ومَنْ منّا على الضلال ، وكأن رسول الله يرتضى حكومتهم فى هذه المسألة ، وما ترك لهم رسول الله الحكمَ إلا وهو واثق أنهم لو تجردوا من الهوى لعرفوا أن الحق معه ، وأنه على الهدى ، وأنهم على الضلال .

إذن : عندما تكلم القرآن عن كفار قريش الذين تعنتوا فى اقتراحاتهم ، وعاندوا وآذوا رسول الله بكل أنواع الإيذاء ، ومع ذلك حينما تكلم عنهم جاء بأسلوب عام فقال : (الذين) ولم يقل هؤلاء ، بل جاء بالقضية العامة ولم يُواجههم بالجزاء مما يدلّ على التلطف فى أمر الدعوة ، وهذا نوع من استمالة الخَصْم لنقطع منه شراسة العداء والعناد .

لذلك يخاطب الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] كأنك لم تَلِنْ لهم بطبْعك ؛ لأن عنادهم وأذاهم كان سيُرغم طبْعك على أن تكونَ قاسياً معهم ولكن رحمة الله شملتْك فلَنْتَ لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

هذا يعنى أن الداعية لا بُدَّ أن يكون رَحْب الصدر ، رَحْب الساحة ، ذلك لأنه يُخرِج أهل الضلال عما ألفوه إلى شيء يكرهونه ، فلا تُخرجهم من ذلك بأسلوب يكرهونه ، فتجمع عليهم شدتين ، إنما تلطَّفْ معهم ، كما قال عز وجل لموسى وهارون عندما أمرهما بدعوة فرعون : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

لأن الذى بلغ من عناده أنْ يتكبّر لا على المخلوقين أمثاله ، إنما يتكبّر على الخالق فيدّعى الألوهية لا بُدَّ أنْ تأتيه بأسلوب ليِّن لطيف .

وفى آية أخرى يُعلِّم الحق سبحانه رسوله ﷺ كيف يجادل المشركين ، فيقول سبحانه : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

وهل يُتصوَّر الإجرام من رسول الله ؟! وفى المقابل : ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] مع أن منطق الجدل هنا أن يقول : ولا نُسأل عما تُجرمون ، لكنه نسب الإجرام لنفسه ، ولم يذكره فى حَقِّ الآخرين ، فهل هناك تلطُّفٌ وترقيق للقلوب فوق هذا ؟

الحق - تبارك وتعالى - يعرض لكل هذه المسائل ليثبت أن رسوله ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه ، وأنه لم يدّخرْ وُسْعاً فى سبيل هدايتهم وجَذْبهم إليه ؛ لدرجة أنه حمّل نفسه فوق ما يطلبه الله منه ، حتى قال له ربه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

يعنى : مُهلكٌ نفسك من أجل هدايتهم ، وما عليك إلا البلاغ ، ولا يقول له ربه هذا الكلام إلا إذا كان قد علِم منه حِرْصاً ورغبة أكيدة فى هداية قومه .

ومعنى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ﴾ [الفرقان] قوله تعالى ﴿ شَرٌّ .. (٣٤) ﴾ [الفرقان] ولم يقُلْ أشر ؛ لأن معناها : أن الجهة الثانية فيها شر ، وهذا أيضاً من إرخاء العنان للخصم .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن أقوام الرسل السابقين :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا[1] (٣٥) ﴾

---

(١) الوزير : المعين والمساعد . قال فى [لسان العرب - مادة : وزر] : « الوزير فى اللغة اشتقاقه من الوِزْر ، والوزر : الحبل الذى يعتصم به ليُنجي من الهلاك ، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجىء إليه » .